

مكانته فى الصناعة الشعرية

نشأ جميل نشأة أدبية صالحة لموطنه وعصره، وتخرج فى مدرسة الشعر كأحسن ما يتخرج الشاعر بالحجاز فى القرن الأول للهجرة، فكان كما جاء فى كتاب الأغنى «راوية هدية بن خشرم، وكان هدية شاعرًا وراوية للحطيئة، وكان الحطيئة شاعرًا راوية لزهير وابنه» فاجتمعت له الرواية والشعر مسلسلًا من أساتذة فحول مشهود لهم بين الرواة والشعراء. وكان بعض المشهورين بعلم الشعر فى زمنه يفضلونه على الشعراء كافة ويقولون أنه أشعر أهل الإسلام والجاهلية. فرؤى عن نصيب الشاعر أنه قال: قدمت المدينة فسألت عن أعلم أهلها بالشعر ف قيل لى: الوليد بن سعيد بن أبى سفيان الأسلمى، فوجدته بشعب سلع مع عبد الرحمن بن حسان وعبد الرحمن بن أثير. فإنّا لجلوس إذ طلع علينا رجل طويل بين المنكبين، طوال، يقود راحلة عليها بزة حسنة. فقال عبد الرحمن بن حسان لعبد الرحمن بن أثير: يا أبا جبير: هذا جميل؛ فادعه لعله أن ينشدنا. فصاح به عبد الرحمن:

هيا جميلُ هيا جميلُ! فالتفت فقال: من هذا؟ فقال: أنا عبد الرحمن بن أذهر. فقال: قد علمت أنه لا يجترئ علىّ إلا مثلك. فأتاه فقال له: أنشدنا. فأنشدهم:

«نحن منعنا يوم أول^(١) نساءنا» إلى آخر الأبيات... ثم قال له: أنشدنا هزجًا. فسأل: وما الهزج؟ لعله هذا القصير! قال: نعم. فأنشده:

رسم دار وقفت في طلله كدت أقضى الحياة من جلله

حتى فرغ من القصيدة، ثم اقتاد راحلته موليًا.

«فقال ابن الأذهر: هذا أشعر أهل الإسلام. فقال ابن حسان:

نعم واللّه، وأشعر أهل الجاهلية. واللّه ما لأحد منهم مثل هجائه ولا نسيبه. فقال عبد الرحمن بن الأذهر: صدقت!».

ثم قال نصيب: «وأنشدت الوليد فقال لي: أنت أشعر أهل جلدتك، واللّه ما زاد عليها».

ذلك رأى المتأدبين المشهود لهم بعلم الشعر في عصره،

ولعلهم غلبوا فيه النظر إلى العشق والنسيب على النظر إلى فنون الشعر كله، ففي هذا ولا ريب مجال لمن يشاء أن يقدم

(١) واد على طريق اليمامة إلى مكة.

جميلاً على شعراء الجاهلية وشعراء الإسلام إلى زمانه. إذ ليس في الجاهلية من اشتهر بالعشق والنسيب خاصة كما اشتهر بعض الشعراء في القرن الأول للهجرة، وليس في شعراء القرن الأول للهجرة من يرتفع على المقابلة بينه وبين جميل في أغراضه ومعانيه. فإذا قال القائل على هذا الاعتبار: إن جميلاً أشعر أهل الإسلام والجاهلية، فليس في قوله غلو كبير، وإن جاز فيه الخلاف.

ومع تعدد الآراء في هذا يمكن الاتفاق على أن جميلاً كان ملحوظ المكانة بين شعراء زمانه وكان معترفاً له بالإجادة والأستاذية إلى ما بعد زمانه، كما يظهر ذلك من نظر الشعراء المبرزين إلى معانيه واقتباسهم من أقواله.

لقى الفرزدق كثيراً بقارعة البلاط - بالمدينة - فقال له الفرزدق: يا أبا صخر! أنت أنسب العرب حين تقول:

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثّل لي ليلي بكل سبيل
ويعرض له بسرقة من جميل حيث يقول:

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثّل لي ليلي على كل مرّقب
فأجابه كثير: وأنت يا أبا فراس أفخر الناس حين تقول:

ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا
وإن نحن أومأنا إلى الناس وقّفوا
وهذا البيت أيضاً مسروق من قول جميل :

نسير أمام الناس والناس خلفنا
فإن نحن أومأنا إلى الناس وقّفوا

وهذان شاعران بارزان من أبناء عصر جميل يعترفان فيما
بينهما بالاعتباس من معاني جميل ، وهو اقتباس لا يخلو من
شهادة وإكبار ودلالة على مكانة ملحوظة بين الشعراء .

وقد بقيت له هذه المكانة إلى ما بعد عصره عند أناس من
شعراء العصر العباسي في طبقة الفرزدق وكثير . فروى أن ابن
الحسين المهلبى لقي أبا العتاهية فاستنشه من شعره فأنشده :

يا صاحب الروح ذى الأنفاس فى البدن
بين النهار وبين الليل مرتهن

لقلما يتخطاك اختلافهما حتى يفرق بين الروح والبدن
لتجذبني يد الدنيا بقوتها إلى المنايا وإن نازعتها رسنى^(١)

(١) الرسن : حبل فى رأس الدابة .

لله دنيا أناس دائبين لها قد أرتعوا في رياض الغى والفتن
كسائمات^(١) رواع تبتغى سمنا وحتفها لو درت في ذلك السمن

قال ابن الحسين المهلبى: فكتبتها ثم استنشدته من شعره
فى الغزل فقال: يا ابن أخى! إن الغزل يسرع إلى مثلك، فقلت
له: أرجو عصمة الله جل وعز، فأنشدنى:

كانها من حسنهما درة أخرجها اليمُّ إلى الساحل
كأنَّ فى فيها وفى طرفها سواحرًا أقبلن من بابل
لم يبق منى حبها ما خلا حُشاشة فى بدن ناحل
يا من رأى قبلى قتيلا بكى من شدة الوجد على القاتل
فقلت له: يا أبا إسحاق! هذا قول صاحبنا جميل:

خليلى فيما عشتما هل رأيتما قتيلا بكى من حب قاتله قبلى

فقال: هو ذاك يا ابن أخى، وتبسم!
وأقل ما يدل عليه هذا وأشباهه أن شعر جميل كان يقرأ
ويستحسن ويقتدى به فى معناه، وأنه ينال هذا الاستحسان
عند فحول الشعراء فضلًا عن الشداة المبتدئين، وهذه مكانة
«الأستاذية» لامراء.

(١) السائمة: الماشية والإبل الراعية.

وقد يزكى هذه المكانة أن الذين شهدوا بها كان بينهم أناس عرفوا بالخيلاء وشدة الاعتداد بالقدرة الشعرية بين النظراء، ومنهم من كان يستحرق لفراط خيالاته كالشاعر العاشق كثير، وهو أخرى الناس بمنافسة جميل.

فمن خيالاته أن عمر بن أبي ربيعة والأحوص ونصيباً اجتمعوا في مكان فأرسلوا إليه راويته يدعونه إليهم، فأكبر الأمر وسأل صاحبه متبرماً: أما كان عندك من المعرفة بي ما كان يردعك عن إتياني بمثل هذا؟.. قل لابن أبي ربيعة إن كنت قرشياً فإني قرشى، وإن كنت شاعراً فأنا أشعر منك... قال راويته: هذا إذا كان الحكم إليك. فقال: وإلى من هو؟ ومن أولى به مني؟.. ثم رجع الرسول إليهم فأخبرهم بما سمع منه، فضحكوا ثم نهضوا معه فدخلوا عليه في خيمة، فوجدوه جالساً على جلد كبش، فما أوسع لهم من مجلسه!

فهذا الشاعر على خيالاته كان لا يني قائماً قاعداً بالشهادة لجميل وتفضيله عن نفسه حيث يسأل وحيث لا يسأل، وهو مزهو بالسماع منه والرواية عنه والتتلمذ عليه.

سأله نصيب: أجميل أنسب أم أنت؟ فقال: وهل وطأ لنا النسيب إلا جميل!

وسئل مرة أخرى فقال : وهل علم الله عز وجل ما تسمعون
إلا منه؟

وربما نقلوا عن كثير في صدد إعجابه بجميل ما نستبعد
صدقه سواء قاله أو لم يقله. كزعمهم أنه ذكر يوماً أنه يروى
لجميل ثلاثين قصيدة لا يعرفها الناس وأنه أمات له ألف
قافية لينتحلها ويدعيها لنفسه. فإن ميدان جميل لا يتسع
لألف قافية تسرق. ولا لثلاثين قصيدة تسقط من جملة شعره
وهو محدود الأغراض متشابه الأنماط. وإنما يفهم من هذا
الكلام إن صدر من كثير أن فخره بالرواية عن جميل أكبر من
فخره بشعره الذي يُنسب إليه، ولولا مكانة جميل عنده وعند
الناس لما وقع في خاطره وجرى على لسانه هذا الفخار.

* * *

ولا نحسب أن أحداً ناظر جميلاً على قصد منه - أو على
غير قصد - كما ناظره عمر بن أبي ربيعة الذي كان كثير
يستطيل عليه.

فقد كانت المناظرة بينهما طرائق متعددة لا طريقة
واحدة، فكان كلاهما شاعراً وكلاهما مشهوراً بالنسيب

وكلاهما إمامًا لأمثاله من المتغزلين. فكان جميل في عصره إمام العشاق المقصورين على معشوقة واحدة، وكان عمر بن أبى ربيعة في عصره إمام المشغوفين بمغازلة النساء، وكانا فوق هذا التقابل فى شتى الطرائق متقابلين فى تمثيل البداوة والحضارة، وفى عزة النسب وعراقة الأصول. فهما متناظران يقتربان فى الميزان كلما عرض الناقد لشعراء ذلك الزمان، وقد تلاقيا وتناشدا وقيل إن جميلا سمع منه اللامية التى فيها:

جرى ناصح بالود بينى وبينها
فقربنى يوم الحصاب إلى قتلى

فقال: هيهات يا أبا الخطاب! لا أقول والله مثل هذا سجين^(١) اللئالى، وما خاطب النساء مخاطبتك أحد، وقام مشمرًا.

ونميل نحن إلى قبول هذه الرواية لأن الشاعرين قد تشابها فى معانٍ هى أقرب إلى نمط ابن أبى ربيعة منها إلى نمط جميل.

(١) طوال اللئالى.

فقال جميل :

إذا خدرت رجلى وقيل شفاؤها
دعاء حبيب كنت أنت دعائيا

وقال عمر :

إذا خدرت رجلى أبوح بذكرها
ليذهب عن رجلى الخدور فيذهب

وقال أيضاً :

أهيم بها فى كل ممسى ومصبح
وأكثر دعواها إذا خدرت رجلى

وهو من القصيدة التى سمعها جميل وشهد من أجلها لعمر
بالسبق فى مخاطبة النساء ، والبيت أقرب إلى كلام الذين
تعودوا محادثة النساء منه إلى كلام العاشق المقصور على
معشوقة واحدة ، كذلك قال جميل :

وهما قالتا لو أن جميلا
عرض اليوم نظرة فرآنا

بينما ذاك منهما رأيانى
أعمل النص سيره الزفيانا^(١)

وهو أشبه بقول عمر وبفعله أيضاً وخلائقه حيث يقول:

بينما يذكرنى أبصرننى دون قيد الميل يعدو بى الأغر
قلن تعرفن الفتى قلن نعم قد عرفناه وهل يخفى القمر

وقد قيل: إن عمر بن أبى ربيعة أنشد بثينة تلك الأبيات
الثلاثة من كلام جميل فقالت: «إنه استملى منك فما أفلح،
وقد قيل: اربط الحمار مع الفرس فإن لم يتعلم من جريه تعلم
من خلقه».

ومن قصائد جميل المشهورة رائية مطلعها:

أغادِ أخى من آل سلمى فمبكر
أبنِ لى أغادِ أنت أم متهجر

وهو كمطلع عمر فى قصيدته الرائية التى هى أفضل شعره
حيث قال:

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر
غداة غد أم رائح فمهجر

(١) الزفن: الدفع الشديد والضرب بالقدم كما يفعل الراقص.

والقصيدة كلها مما قيل إن جميلا سمعه من شعر عمر ، فأقر له وأثنى عليه.

وفى الديوانين قطعة جيمية رويت لعمر ورويت لجميل منها هذه الأبيات :

قالت وعيش أخى وحرمة والدى
لأنبهن الحى إن لم تخرج
فخرجت خيفة قولها فتبسمت
فعلمت أن يمينها لم تخرج
فلثمت فها آخذًا بقرونها
شرب النزيف ببرد ماء الحشرج

وهو كلام فيه من عبث المجون والمماحكة بين عمر وصويحاته ، وليس فيه من جد العشق الذى كان بين جميل وبثينة ، ولا هو مما يوافق فخر جميل باقتحام المنازل والمناجزة لمن يترصدون له بالسيوف حول بيت بثينة ، ومنهم أبوها وأخوها كما جاء فى بعض الأخبار ، وتكرر فى سيرته على روايات مختلفات.

فالذى نرجحه أن جميلا كان يحب أن يحكى عمر فى بعض ما قال ، ولكننا لا نرجح هذا الترجيح لنخلص منه إلى تقديم

عمر على جميل فى الصناعة الشعرية، فهما فيها متكافئان
يختلفان حينما اختلفا فى المزاج والخليقة ولا يدعو ذلك
إلى تفضيل أحدهما على الآخر فى صناعة النظم والتعبير،
وإنما نحمل اقتباس جميل من عمر على اقتداء البدوى بأهل
الحضارة حيثما كان وكانوا، ولا سيما إذا كان الحضرى شاعراً
مقبول الشعر بين العلية والمترفين من أبناء المدينة وبناتها،
وهم أهل الطبقة التى تروى من البدو خاصة من كان قريباً إلى
معيشة المدن غير منقطع لخشونة البادية، على مثال جميل.

* * *

فهما إذن فى الشعر ندان متكافئان، جميل وعمر بن
أبى ربيعة. وقد خرجا معاً بالغزل كله من ناحيتيه فى القرن
الأول للهجرة بأرض الحجاز بين حاضرة وبادية، فلو زال
شعر الغزل فى تلك البيئة وفى ذلك العصر جميعاً فلم يبق منه
إلا ما نظم هذان الشاعران لأغنانا عن كل ما عده فى الدلالة على
حالة المرأة وحالة النساء كما ينعتهما العاشق وزير النساء.

وقد يبدو على شعر جميل إذا قوبل بشعر عمر أنه أفحل
وأجزل وأبلغ فى الصناعة الشعرية وأجمل، وذلك فيما يبدو

لنا التباس بين فحولة المزاج وفحولة الشعر لا يثبت على التمهيص. فمن المؤلف أن يظهر الجد في شعر العاشق الذي ينسب بامرأة واحدة ويعيرها كل قلبه وهواه، ولا يظهر مثل هذا الجد في شعر الرجل الذي يقضى زمانه كله في التحدث إلى النساء والتنقل بينهن، وقل أن يسلم رجل كهذا من اصطناع التأنث ولو لم يكن مطبوعاً عليه، فيسرى التأنث إلى كلامه وتتوارى منه قوة الفحولة التي تقترب بالجد حيث كان. ومع هذا لم يسلم جميل ممن يأخذ عليه التأنث في نصف بيت هو قوله:

ألا أيها النّوام ويحكموا هبوا
أسألكم هل يقتل الرجل الحب

فالشطر الأول كما قال صالح بن حسان «أعرابي في شملة» والشطر الثاني «مخنث يتفكك من مخنثي العقيق!». ولكن نصف بيت أو مئات من الأبيات ليس فيها أعرابي واحد في شملة، ومعظم أبياتها هواج تسفر عن حسان مدلات وأخدان حسان مدلات! وذلك ديوان ابن أبي ربيعة في جملته على التحقيق.

ويشبه الالتباس بين فحولة المزاج وفحولة الشعر التباس آخر يعرض لكثير من المعجبين بنسيب جميل، فهو عندهم إمام الشعراء لأنه إمام المحبين، وقد سئل عنه نُصيب فقال: ذاك إمام المحبين، وهل هدى الله عز وجل لما ترى إلا بجميل؟ وجائز أن يكون صدق الحب سبباً من أسباب جودة الشعر الذى يعبر عنه، ولكن صدق الحب وجودة التعبير يظلان بعد هذا شيئين مختلفين، فيصدق المحب ولا يجيد الشعر، ويجيد الشاعر ولا يبلغ مبلغ ذلك المحب الصادق فى وجدته وشوقه ووفائه... إن أحدهما لسبب للآخر ونعنى الحب والتعبير، ولكنهما قد يفترقان كما يتفقان.

ولا يزال الحكم على عشق جميل وغزل جميل وشعر جميل يتطلب الحكم على ثلاثة أشياء لا على شيء واحد، وإن لم يكن من الضروري أن تتناقض هذه الأشياء.

فالذين قالوا إنه أشعر أهل الإسلام والجاهلية لأنه أصدق المحبين يخطئون، إذ ربما ثبت له أنه أصدق من أحب فى زمانه ولم يثبت له أنه أصدق من تغزل فضلاً عما هجا ومدح كما أراد بعض النقاد فى زمانه أن يقول.

وحقيقة الرأى الذى يدل عليه شعره فيما نعتقد أنه كان شاعرًا يجمع بين البلاغة والسهولة، ويرتقى فى الصناعة الشعرية مرتقى لا يعلو عليه شاعر من أبناء عصره، وهم على الإجمال فطريون فى هذه الصناعة لهم مزايا الفطرة وعيوبها فى آن، ولا سيما العيوب التى لها اتصال بكل صناعة من الصناعات. ومن مزايا الفطرة الصدق والبساطة وقرب الأداء، ومن عيوبها النقص والسذاجة وقلة الإتقان. ومن رأينا أن شعراء الجاهلية وشعراء القرن الأول للإسلام كانوا جميعاً أوفر الشعراء حظاً من مزايا الفطرة وعيوبها على السواء. فهم أصحاب معنى مستقيم ولغة قوية وشعور لا بهرج فيه ولا التواء، وهم إلى جانب هذا مبتدئون متعثرون فى صوغ الشعر لم يصلوا بالقصيدة ولا بالأغنية إلى مبلغ الإتقان ووحد المدلول، ولعلمهم لم يبلغوا فى ضرب من الشعر مبلغه من الإتقان غير الرجز، لأنه مفكك بطبيعته لا يحتاج إلى تنسيق وانسجام.

وما زال الإتقان الصناعى يزداد والشعور الفطرى ينقص حتى تناهيا زيادة ونقصاً فى أواخر عهد العباسيين، فأصبح الإفراط فى الصناعة بهرجاً، والإفراط فى ضعف الشعور الفطرى تكلفاً واصطناعاً، وتلاقى هذا وذاك فى الغثاثة المزيفة التى لا هى

صناعة جيدة ولا فطرة جيدة، ولكنها مسخ للصناعة والفطرة
لا خير فيه.

فالشعراء العباسيون مثلاً أجود صناعة من الشعراء
الأمويين والمخضرمين، وأنأى منهم عن استقامة الفطرة
وبساطة التعبير، ولا استثناء لأحد من الأمويين والمخضرمين
والجاهليين فى ضعف الصنعة الذى يأخذ كل منهم بنصيب
منه حتى شعراء المعلقات.

وشأن جميل فى هذا شأن غيره من أبناء عصره وسابقيه:
يأتى بالكلام السهل البسيط لأن معناه سهل بسيط، ولأنه يملك
القدرة الفنية التى يعتمد بها إلى المعانى المركبة فتسلس له
فإذا هى مجلوة فى ثوب من البساطة يخدع السامع حتى
ليحسبه خلواً من كل تركيب.

وقلما تجاوز الأبيات فى القصيدة الواحدة واعتمد الإطالة إلا
تعثر والتفت بمن يتحدث عنه بين الخطاب والغياب وضمير
المفرد وضمير الجمع فى نفس واحد، كما قال:

فإن تبين بلا جرم ولا ترة^(١)
وتولعى بى ظلماً أى إيلاع

(١) ثار.

فقد يرى الله أنى قد أحبكم
حباً أقام جواه بين أضلاعى
لولا الذى أرتجى منه وآمله
لقد أشاع بموتى عندها ناعى
أو كما قال :

إلى الله أشكو لا إلى الناس حبها
ولابد من شكوى حبيب يرّوع
ألا تتقين الله فيمن قتلته
فأمسى إليكم خاشعاً يتضرع
وقد يخطئ فى قواعد اللغة أو يتجاوز فى أبيات غير قليلة،
منها قوله فى قصيدة من أشهر قصائده:
فإن لم تكن «تقطع» قوى الود بيننا
ولم تنس ما أسلفت فى سالف الدهر
فسوف يرى منها اشتياق ولوعة
يبين وغرب من مدامعها يجرى
ومنها قوله :

ولو أن «داع» منك يدعو جنازتي
وكنت على أيدي الرجال حييت

وهو في هذا وعمر بن أبي ربيعة وغيرهما من شعراء
عصرهما سواء أو متقاربون.

* * *

وفي حيز هذه القدرة الفنية يبدع غاية الإبداع الذي يتاح
لشاعر قديم أو حديث، فلا يقول شاعر في البيت والبيتين
أو الأبيات القلائل أبلغ من قوله في تعذر نسيان الحبيب:

ولو تركت عقلى معى ما طلبتها ولكن طلابيها لما فات من عقلى
أو قوله لمن يقدح في صاحبه ليحللن عنده في محلها:

ولرب عارضة علينا وصلها
بالجد تخلطه بقول الهازل
فأجبتها بالرفق بعد تستر
حبي بثينة عن وصالك شاغلى
لو أن في قلبى كقدر قلامه
فضلا وصلتك أو أتتك رسائلى

ويقلن إنك قد رضيت بباطل
منها فهل لك في اعتزال الباطل
ولباطل ممن أحب حديثه
أشهى إليّ من البغيض الباذل
أو قوله في حيرته بين حبه لغيرها وحب غيره من
المحبين :

سلا كل ذي ود علمت مكانه
وأنت بها حتى الممات موكل
فما هكذا أحببت من كان قبلها
ولا هكذا فيما مضى كنت تفعل
أو قوله في الفراق :

كأنى سقيت السم يوم تحملوا
وجد بهم حاد وحاد مسير
على أننى بالبرق من نحو أرضها
إذا قصرت عنه العيون بصير
وإنى إذا ما الريح يوماً تنسمت
شامية عاد العظام فتور

ألا يا غراب البين لونك شاحب
وأنت بروعات الفراق جدير
فإن كان حقاً ما تقول فأصبحت
همومك شتى والجناح كسير
ودرت بأعداء حبيبك فيهم
كما قد ترانى بالحبيب أدور
أو قوله فى تمنى الصلة الدائمة بصاحبته حياً وميتاً ثم
سخطه على لجاجة الحب بعد هذا:

أعوذ بك اللهم أن تشحط النوى
ببثينة فى أدنى حياتى ولا حشرى
وجاور إذا ما مت بينى وبينها
فيا حبذا موتى إذا جاورت قبرى
عدمك من حب! أما منك راحة
وما بك عنى من توان ولا فتر؟
ولهذه الأبيات الأخيرة لا نستغرب مبالغته التى تنذر فى
شعره وشعر أبناء عصره حيث يقول:
إذا ما دنت زدت اشتياقاً وإن نأت
جزعت لنأى الدار منها وللبعد

أبى القلب إلا حب بثنة لم يرد
سواها وحب القلب بثنة لا يجدى
تعلق روى روحها قبل خلقنا
ومن بعد ما كنا نطافا وفى المهد
فزاد كما زدنا فأصبح ناميا
وليس إذا متنا بمنقضى العهد
ولكنه باق على كل حالة
وزائرنا فى ظلمة القبر واللحد

ففى هذه المبالغة مسحة من شطحات ابن الفارض وأضرابه ،
ولكن المبالغة هنا تتسلسل وتتدرج وتنمو على جذورها حتى
تبلغ ذروتها ولا غرابة فيها ولا تناقض بين أعلاها وأدناها .
فمن قال البيت الأول قال الأبيات التى تليه كما يصعد النفس
مطياً فيه حتى يستوفيه .

إلا أن الذى يأباه الذوق والعقل أن تنسب إلى جميل أبيات
كهذه الأبيات التى ضمت إلى ديوانه :

خليلى إن قالت بثينة ماله
أتانا بلا وعد؟ فقولا لها : لها

أتى وهو مشغول لعظم الذى به
ومن بات طول الليل يرعى السها، سها
بثينة تزرى بالغزالة فى الضحى
إذا برزت لم تبق يوماً بها بها
لها مقلة كحلاء نجلاء خلقة
كأن أباهما الطبقى أو أمهما مها
دهتنى بود قاتل وهو متلفى
وكم قتلت بالود من ودها دها

فهذا كالانتقال من الشملة العربية إلى ثياب المرافع قبل
أن تخلق المرافع بقرون، ولو جاز أن يقول جميل مثل هذه
الأبيات مرة لوجب أن تتكرر نظائرها فى قصائده هنا وهناك،
لأن المحسنات من هذا الطراز عادة تجر لا محالة إلى الإدمان.
وقياساً على هذا كله ما جاوز الصدق الفطرى والبلاغة
السهلة والجد فى وصف الشعور، فهو منحول له وليس
بالنسج الذى يندس بين لحمته وسداه.

إنما الرجل ابن زمانه فى معناه وصناعته، وله من الإمامة
بين شعراء العشق فى ذلك الزمان مكان لم يناع فيه، لأن

عيوبه أقل من عيوبهم ومزاياه أظهر من مزاياهم، وشعره فى جملته يجمع خير ما قالوه.

وهنا يحسن بنا أن نقيد «خير ما قالوه» بما قالوه فى النسب دون غيره، فالحق أنه لم يأت بطائل فى الهجاء ولو بالقياس إلى معاصريه، أو لعل الذى نظم فى هذا الباب ورجح به على الشعراء فى رأى نقاد عصره قد ذهب به الزمن ولم يصل إلينا مع سائر شعره، وهو ظن ضعيف.